﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢﴾ [ص: 49 - 52]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بَعْدَ الاصطفاءِ الدُّنيويّ يأتي بيانُ الإنْعامِ وحُسنِ الجزاءِ

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ مجموعةً من الرُّسُلِ الكِرامِ، مع ذكرِ أوْصافِهم التي بها نالوا الخيرَ العميمَ، والاصطفاءَ الكريمَ في الدُّنيا، ناسَبَ الانتقالُ إلى بيان ما اصطفاه الله تعالى لعبادِه المتّقين المستجيبين للمصطَفَينَ الأخيارِ في الآخرةِ، والآياتُ كذلكَ مِنْ بابِ تَرَتُّبِ الجزاءِ الحسَنِ علَى الصَّبْرِ الجميلِ على الابتلاءِ، ولَمّا بَيَّنَ ﷻ أنَّ الأنْبياءَ المُتَقدِّمينَ صَبَروا عَلى المَكارِهِ والشَّدائِدِ، فَيَجِبُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ أنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ في هَذا المَعْنى، وأنَّهُ ﷻ بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أنَّ مَن أطاعَ اللَّه كانَ لَهُ مِنَ الثَّوابِ كَذا وكَذا، ومَن خالَفَهُ كانَ لَهُ مِنَ العِقابِ كَذا وكَذا، وكُلُّ ذَلِكَ يوجِبُ الصَّبْرَ عَلى تَكاليفِ اللَّه ﷻ، وهَذا نَظْمٌ حَسَنٌ وتَرْتيبٌ لَطيفٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَـَٔابٖ﴾ (أوب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الرُّجوعُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ ما يَبْعُدُ في السَّمْعِ قَليلًا، والأصْلُ واحِدٌ[2]. وآبَ فُلانٌ إلَى سَيْفِه، أيْ: رَدَّ يَدَهُ ليَسْتَلَّهُ. وآبَ الغائِبُ يَؤوبُ أوبًا، أيْ: رَجَعَ[3]، وهو يدورُ حولَ رجوعِ الشَّيْءِ إلى مُسْتَقَرِّه[4]. والأوّابُ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلَى اللَّه ﷻ مِنَ ذنبه. والأوْبَةُ: الرُّجوع، كالتَّوْبةِ. والمآبُ: المَصْدَرُ مِنْهُ، وهو أيضًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 401.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوب).
(3) الخليل، كتاب العين: (أوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أوب).

اسْمُ الزَّمانِ والمَكانِ. قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14][1]، وقولُه: ﴿مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: 22]؛ أي: مَرْجِعًا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ اسْمَ مَكانٍ[2].

2) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ (وكا) يَدُلُّ عَلَى شَدِّ شَيْءٍ وشِدَّةٍ. مِنْهُ الوِكاءُ: الَّذي يُشَدُّ بِهِ. ومِنَ البابِ تَوَكَّأْتُ عَلَى كَذا، أي اتَّكَأْتُ، لِأنَّهُ يَتَشَدَّدُ بِهِ ويَتَقَوَّى بِهِ. وأوْكَأْتُ فُلانًا إيكاءً: نَصَبْتُ لَهُ مُتَّكَأً. ووَكَأَ: تَوَكَّأَ عَلَى الشَّيْءِ واتَّكَأَ: تَحَمَّلَ واعتمَدَ، فَهوَ مُتَّكِئٌ. والتُكأةُ: العَصا يُتَّكَأُ عَلَيْها في المَشْيِ. يُقالُ: هوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصاهُ، ويَتَّكِئُ. وأتْكَأْتُ الرجُلَ إتْكاءً إذا وسَّدْتَه حَتَّى يَتَّكِئَ[3]. والمُتَّكَأُ: المَكانُ الَّذي يُتَّكَأُ عَلَيْهِ، والمِخَدَّةُ: المُتَّكَأُ عَلَيْها، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، وقالَ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: 20]، و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: 56][4]. والاتِّكاءُ: جِلْسَةُ الرّاحَةِ والتَّرَفِ. وقولُه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ يقالُ: اتَّكَأَ الرَّجُلُ، وأصْلُهُ: اوْتَكا، مثلُ: (اتَّزَنَ) من (الوزن)، والتُّكأةُ بوزنِ فُعَلَةٍ، قالَ: وأصلُهُ وُكَأَةٌ، فَقُلِبَتِ الواو تاء، كَما قالوا تُراثٌ، وأصلُهُ: وُراثٌ، واتّكأْتُ اتِّكاءً أصلُهُ أوْتَكَيْت فأُدْغِمَتِ الواو في التّاء، وشُدِّدَتْ، وأصْلُ الحَرفِ: وكَأ يوكِّئُ تَوْكِئَةً[5].

3) ﴿قَـٰصِرَٰتُ﴾ (قصر) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى الحَبْسِ، يُقالُ: قَصَرْتُهُ إذا حَبَسْتُهُ، وهوَ مَقْصورٌ، أيْ مَحْبوسٌ، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: 72]. وامْرَأةٌ قاصِرَةُ الطَّرْفِ: لا تَمُدُّهُ إلَى غَيْرِ بَعْلِها، كَأنَّها تَحْبِسُ طَرْفَها حَبْسًا[6]. والمَعْنَى المَحْوَرِيُّ حَبْسٌ عنِ الانْتِشارِ طولًا أوْ عَرْضًا[7]. قالَ اللّٰهُ سُبْحانَهُ: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: 56]: مَعْناه أنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ أبْصارَهُنَّ على أزْواجِهِنَّ فَلا يَنْظُرْنَ إلَى غَيْرِهِم رِضًى بِأزْواجِهِنَّ، وقيل: مَعْناه لا يَمْدُدْنَ أعْيُنَهُنَّ إلَى ما لا يَجوزُ[8]. وقيلَ: أيْ فاتِراتُ الطَّرْفِ، وهوَ صِفَةُ مَدْحٍ في الأعْيُنِ[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (أوب).
(2) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (أوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكا).
(4) الرّاغب، المفردات: (تكأ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تكأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصر).
(8) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (قصر).
(9) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (طرف).

4) ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ (طرف) أصلانِ؛ فالأوَّلُ: بفتح الراء، يَدُلُّ عَلَى حَدِ الشَّيْءِ وحَرْفِهِ، والثّاني: بسكون الراء يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأعْضاءِ. فالأوَّلُ: طَرَفُ الشَّيْءِ والثَّوْبِ والحائِطِ، وقَوْلُهُمْ: عَيْنٌ مَطْروفَةٌ، مِنْ هَذا؛ وذَلِكَ أنْ يُصيبَها طَرَفُ شَيْءٍ ثَوْبٍ أوْ غَيْرِهِ فَتَغْرَوْرِقَ دَمْعًا. وأمّا الأصْلُ الآخَرُ فالطَّرْفُ، وهوَ تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ. هَذا هوَ الأصْلُ ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ الطَّرْفَ مَجازًا[1]. والطَّرْفُ: تَحْريكُ الجِفْنِ، وعُبِّرَ بِهِ عن النَّظَرِ إذْ كانَ تَحْريكُ الجَفْنِ لازِمُه النَّظَرُ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، عِبارَةٌ عنْ إغْضائِهِنَّ لِعِفَّتِهِنَّ[2].

5) ﴿أَتۡرَابٌ﴾ (ترب) أصْلانِ: أحَدُهُما التُّرابُ وما يُشْتَقُّ مِنْهُ، والآخَرُ تَساوي الشَّيْئَيْنِ. فالأوَّلُ التُّرابُ، وهوَ التَّيْرَبُ والتَّوْرابُ. ويُقالُ تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتَقَرَ كَأنَّهُ لَصِقَ بِالتُّرابِ، وأتْرَبَ إذا اسْتَغْنَى، كَأنَّهُ صارَ لَهُ مِنَ المالِ بِقَدْرِ التُّرابِ، وأمّا الآخَرُ فالتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْعُ أتْرابٌ[3]. وقَوْلُه جل شأنه: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾، أي: لِداتٌ، تَنْشَأنَ مَعًا، تَشْبيهًا في التَّساوي والتَّماثُلِ بِالتَّرائِبِ الَّتي هيَ ضُلوعُ الصَّدْرِ، أوْ لِوُقوعِهِنَّ مَعًا عَلَى الأرْضِ، وقيلَ: لأنَّهُنَّ في حالِ الصِّبا يَلْعَبْنَ بِالتُّرابِ مَعًا[4]. وقيلَ: أترابٌ لِأزْواجِهِنَّ، وهوَ أكْثَرُ أُلْفَةً[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـعـدُّدُ أنـواعِ النَّعيمِ في جناتِ الـخـلـدِ المـقـيـمِ المُعَدَّةِ للصّابرينِ المتَّقينَ

بَعْدَ أنْ ذَكَرَ النَّظْمُ الحكيمُ بعضًا منْ صِفاتِ أنبياءِ اللّهِ الصّابرينَ على البلاءِ، ومَدَحَهُم وأعلى من شأنِهِم للاقتداءِ والتَّأسِّي بِهِم، شَرَعَ في بيانِ ما أعَدَّ اللّهُ لَهُم لِمَنْ سارَ على دَرْبِهِم مِنَ المُتَّقينَ الأخيارِ مِنْ حُسنِ المَرْجِعِ الَّذي يَرْجِعونَ فيهِ في الآخِرَةِ إلى رِضْوانِ اللّهِ ونَعيمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(4) الرّاغب، المفردات: (ترب).
(5) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ترب).

جَنَّتِه، فَهُم فيها مُتَّكِئونَ عَلَى الأرائِكِ والأسِرَّةِ، يَطْلُبون ما لَذَّ وطابَ مِمّا شاؤوا مِن أنْواعِ الفاكِهَةِ الكَثيرَةِ المُتَنَوِّعَةِ، وأنْواعِ الشَّرابِ الكَثيرِ العَذْبِ الطَّيِّبِ، وبَعْدَ وصْفِ المَسْكَنِ والمَأْكولِ والمَشْروبِ، ذَكَرَ اللّهُ تعالى ما يُمَتَّعونَ بِهِ مِنَ الأزْواجِ الطَّيِّباتِ، فأبانَ أنَّ لَهُم زَوْجاتٍ قاصِراتِ طَرْفَهُنَّ على أزْواجِهِنَّ، لا يَنْظُرْنَ إلَى غَيْرِهِم، وهُنَّ لِداتٌ مُتَساوياتٌ في السِّنِّ، مُتَساوياتٌ في الحُسْنِ والجَمالِ، يُحِبُّ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، فَلا تَباغُضَ ولا غيرَةَ عِنْدَهُنَّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ فَصْلِ الخِطابِ أوْ الانْتِقالِ الاقْتِضابيِّ:

إثـــارَةُ انـتـبـاهِ السّامِعِ لِلخبرِ المذكورِ وتحفيزُ الذّهنِ لأهميّته

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فَصَلَتْ جُمْلَةُ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ﴾ الكَلامَ السّابِقَ عَنِ الكَلامِ الآتيَ بَعْدَها، قَصْدًا لِانْتِقالِ الكَلامِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثْلُ جُمْلَةِ: (أمّا بَعْدُ)، ومِثْلُ اسْمِ الإشارَةِ المُجَرَّدِ نَحْوَ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30]. وهو كَما يَقولُ الكاتِبُ إذا فَرَغَ مِن فَصْلٍ مِن كِتابِهِ وأرادَ الشُّروعَ في آخَرَ: (هَذا وقَدْ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ). وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ الانْتِقالِ هو المُسَمّى في عُرْفِ عُلَماءِ الأدَبِ بِالاقْتِضابِ[2]، وهو طَريقَةُ العَرَبِ ومَن يَليهِمْ مِنَ المُخَضْرَمينَ، ولَهم في مِثْلِهِ طَريقَتانِ: أنْ يَذْكُروا الخَبَرَ كَما في هَذِهِ الآيَةِ، وقَوْلِ المُؤَلِّفينَ: (هَذا بابُ كَذا)، وأنْ يَحْذِفوا الخَبَرَ لِدلالَةِ الإشارَةِ عَلى المَقْصودِ، كَقَوْلِهِ تعالى ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30]. وإنَّما صُرِّحَ بِالخَبَرِ في قَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ﴾ لِلاهْتِمامِ بِتَعْيينِ الخَبَرِ، وأنَّ المَقْصودَ مِنَ المُشارِ إلَيْهِ التَّذَكُّرُ والاقْتِداءُ، فَلا يَأْخُذُ السّامِعُ اسْمَ الإشارَةِ

(1) الزُّحَيْليّ، التّفسير المنير: 23/ 216.

(2) الزَّمَلْكانيّ، التِّبْيان في علم البيان، ص: 184، والعَسْكَريّ، الصّناعتين، ص: 39، والقَزْوينيّ، الإيضاح، ص: 307، والتخليص: 432 ، وابن الأثير، المَثَل السّائر: 3/ 139.

مَأْخَذَ الفَصْلِ المُجَرَّدِ والانْتِقالِ الاقْتِضابيِّ، مَعَ إرادَةِ التَّوْجيهِ بِلَفْظِ ﴿ذِكْرٌ﴾ بِتَحْميلِهِ مَعْنى حُسْنِ السُّمْعَةِ، أيْ: ذِكْرٌ لأولَئِكَ المُسَمَّيْنَ في الآخَرينَ مَعَ أنَّهُ تَذْكِرَةٌ لِلْمُقْتَدينَ عَلى نَحْوِ المَعْنَيَيْنِ في قَوْلِهِ تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44][1].

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلقَريبِ:

إرشادُ الأذهانِ إلى جزاءِ المصطفينَ في الجنان

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ اسْتِعمالَ اسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للقَريبِ[2]، لتحسُنَ المقابلةُ بين قُربِ ذِكْرِ أخبارِ الابتلاءِ وحسنِ بلاءِ أنبياءِ اللّهِ تعالى؛ في تَحَمُّلِ الابتلاءِ، والقوَّةِ في طاعَةِ اللّهِ والسَّعْيِ في مرْضاتِه تعالى، وبين قربِ الجزاءِ بالنَّعيمِ المُقيمِ، فإنَّ اللّهَ تعالى أوْفَى من وعَدَ، وأكرمُ منْ أعْطى، فهي إشارةٌ إلى معنًى قريبٍ سابقٍ ذكرُه، ليكون حاضرًا في الأذهانِ عند ذكرِ نعيمِ الجنانِ.

تَعْيينُ مَرْجِعِ اسْمِ الإشارَةِ:

تَعـدُّدُ مرجِعِ الإشـارةِ من بلاغَةِ القرآنِ واكتنازِ ألفاظِه بالمَعاني المتكاثِرَةِ

يحتملُ عَوْدُ مرْجِعِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ إلى مَن مَضى ذِكرُه مِنَ الأنْبياءِ، "أيْ: ما تَلَوْناهُ عَلَيْكَ مِن أُمورِهِمْ؛ وأُمورِ غَيْرِهِمْ"[3]، وهو احتمالٌ قائمٌ على ظاهرِ النّظمِ والسّياقِ، ويحتملُ أن ترجعَ الإشارَةُ بِـ﴿هَٰذَا﴾ إلى القُرْآنِ، أي: القُرْآنُ ذِكْرٌ[4]، وهو احتمالٌ مُنتَزَعٌ من إجمالِ البيانِ، والاحتمالانِ لا يتعارضانِ، فإنَّ المذكورَينِ في البيانِ إنّما وردَ ذكرُهم في القرآنِ، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ إلى ما احتواهُ لفظُ ﴿ذِكْرٌ﴾ من معنى الشَّرفِ، أيْ: شَرَفٌ تُذْكَرونَ بِهِ أبَدًا[5]، وهو احتمالٌ لا يتعارضُ مع المتقدِّمِ؛ فإنَّ أعظمَ شرفٍ ناله البشرُ هو القرآن الكريم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.
(2) الملك المؤيّد، الكُنّاش: 1/ 263.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 400.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 166.

علَّة فصْلِ الآيةِ:

جاءَ قولُ اللهِ تباركت آلاؤه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا لِلتَّنْويهِ بِشَأْنِ القُرْآنِ راجِعًا إلى غَرَضِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29][1].

بلاغةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ دونَ رَديفاتِها:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بِمُفْرَدَةِ (الذِّكْرِ) دون مُرادِفاتِها، فَلَمْ يَقُلْ: (هذ بيانٌ)، أو غيرِها ممّا قد يَصْلُحُ في هذا المقام، وذلك لأنَّ مُفْرَدَةَ (الذِّكْرِ) تَحْمِلُ في طيّاتِها، وفي هذا السياقِ تَحْديدًا، ظِلالًا كثيفَةً من المعاني، فَهي قدْ تكونُ بِمعْنَى القُرْآنِ كَما سَبَقَ، وقد تكونُ بِمَعْنَى التَّذْكيرِ والاعْتِبارِ، وقد يكونُ المَقْصودُ بِها أنَّ لهؤلاءِ الأنبياءِ المذْكورينَ شَرَفًا وثَناءً جَميلًا يُذْكَرونَ بِهِ أبَدًا، أو هو شَرَفٌ في الدُّنْيا؛ ومَوْعِظَةٌ مِن ذِكْرِ القُرْآنِ ذي الذِّكْرِ[2]، وجميعُ هذه المعاني التي يحتملُها النَّظم مقبولةٌ، وإنَّ اختيارَ هذه المفردةِ لبيانِ أنَّها جمعتِ الشَّرفَ المُشارَ إليه في سيَرِ المصطَفَينَ، والشّرفَ المُرادَ في القرآنِ الكريمِ، والشّرفَ المضروبَ في العالمين إلى يوم الدّينِ.

جمعُ معاني الشّرفِ الماضي والحاضر والآتي إلى يومِ الدّين

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

تحتملُ الواوُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أنْ تَكونَ عطفًا على الجملة قبلها؛ كأنَّه قيل: هذا شرفٌ لهم في الدنيا، وإنَّ لهم في الآخرةِ لحسنَ مآب، وتحتملُ أن تكونَ من قبيل عطفِ القصَّة على القصَّة[3]، ويَجوزُ أنْ تَكونَ واوَ الحالِ[4]، والأوْلى أن تكونَ

المصطفون قادةُ الأتقياءِ، ونخبةُ الأولياء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 579، والبِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281، ودَرْوَزة، التّفسير الحديث: 2/ 334.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّة، لِما بينهما منَ التّلازُمِ والتَّتابُعِ؛ فإنَّ شأنَ المصطفَينَ أن يكونوا قادةَ الأتقياءِ، ونخبةَ الأولياء.

تَوْجيهِ تَخْصيصِ المتَّقينَ بِالذِّكْرِ:

التَّقوى هي معيارُ قَبولِ الأعمالِ لدخولِ الجنّات

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ المُتَّقون الّذين اتَّقَوُا اللّهَ فخافوه بأداءِ فرائضه، واجْتنابِ معاصيه[1]، وقد خصَّ النَّظْمُ الحكيمُ أصحاب صِفَةِ التَّقْوى بالذِّكرِ دونَ غَيْرِهم؛ والَّتي يتَّصِفُ بِها الصّابِرونَ من الأنبياءِ وأتباعُهم، لِأنَّ التَّقوى هي أصلُ الصَّبرِ، وسرُّ الثّبات، وهي الموصلةُ إلى المطلوبِ على اليقين، فإنَّ الصّبرَ بلا تقوى، كشجرٍ بلا ثمر، وكسحابٍ بلا مطر.

نَوْعُ اللّامِ ودلالتُها:

اختصاصُ المتَّقينَ بالخلودِ في جناتِ النَّعيمِ

جاءَتِ اللّامُ جارَّةً في كلمةِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لإفادَةِ مَعْنى الاختصاص، أيْ: لَهم حُسْنُ مَآبٍ يَوْمَ الجَزاءِ[2]، فَهَؤُلاءِ المُتَّقونَ قدَ اسْتَحَقّوا الخلودَ في الجنَّةِ - فَضْلًا من اللّهِ - جَزاءً على صَبْرِهم على ما ابْتَلاهُمُ اللّهُ به منْ أصْنافِ الابْتِلاءاتِ الشَّديدَةِ، الَّتي تَحَمَّلوها في ذاتِ اللّهِ حتَّى صاروا قُدواتٍ تُحْتَذَى من أتْباعِهم المؤْمِنينَ، فَلَحِقوا بِهِم على دَرْبِ الخلودِ في جناتِ النَّعيم.

مَعْنى تعْريفِ لَفْظِ (المتَّقينَ):

الإشارةُ إلى جَميعِ العَريقينَ في التَّقْوى الَّذينَ يَلْزَمونَ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ جاءَ النَّظْمُ الحكيمُ بِتَعْريفِ كَلِمَةِ (المُتَّقينَ) باللّام، والمُرادُ بِـ(المُتَّقينَ) إمّا الجِنْسُ، والأنبياءُ المَذْكورونَ في السورةِ الكريمَةِ داخِلونَ فيهِ دُخولًا أوَّليًّا، وإمّا نَفْسُ المَذْكورينَ؛ عَبَّرَ عَنْهم بِذَلِكَ مَدْحًا لَهم بِالتَّقْوى الَّتي هي الغايَةُ القُصْوى في الكَمالِ[3]. فاللامُ هَهُنا إشارةٌ إلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

جَميعِ العَريقينَ في وصْفِ التَّقْوى؛ الَّذينَ يَلْزَمونَ - لِتَقْواهُمُ - الصِّراطَ المُسْتَقيمَ[1].

غَرَضُ تَقْديمِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ علَى اسمِ (إنَّ):

الأصل في التقديم توجيه العناية والاهتمام بما قُدِّم

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على اسمِ (إنَّ) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾، للاهْتِمامِ بِذِكْرِ المُتَّقينَ، وللإشادَةِ بِعراقَتِهِم في بابِ التَّقْوى، إذِ التَّقديم في الأصل للعنايةِ والاهتمام[2].

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ:

تَعَدُّدُ وسائلِ التَّوكيدِ دليلٌ على حقيقةِ ما أعدَّ اللهُ للمُتَّقينَ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ أكَّدَ البيانُ القُرْآنيُّ المَعْنَى بعَدَدٍ من المُؤَكِّداتِ، للمُبالَغَةِ في تَرسيخِ جزاءِ المُتَّقينَ في نفوسِ المُتَلَقّينَ، فَعَبَّرَ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ، الَّتي تُفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ، ثُمَّ جاءَ بـ(إنَّ) المُؤَكِّدَةِ لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ، لِتَرْسيخِ المَعْنَى وتأْكيدِه، ثُمَّ أدْخَلَ لامَ التَّوكيدِ، ثُمَّ نُقِلَتْ منْ صدارَةِ الجُملَةِ بالتَّقْديمِ والتَّأْخير. وأساليبُ التّوكيد في اللّغة العربيّة، منها ما يكون تنبيهًا للسّامع، وما يكون توكيدًا للخبر، وما يكون تقويةً للرّغبة[3]، وما يكون للمبالغة في الوصف، كما هو الحال هنا؛ إذ جاء تَعَدُّدُ أساليبِ التَّوكيدِ للدَّلالةِ على حقيقةِ ما أعدَّ اللهُ للمُتَّقينَ، ليَتَرَسَّخَ في نُفوسِهم وقُلوبِهم هذا الوعْدُ الجميلُ، فَيَصْبِروا على مَشاقِّ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ.

نُكْتَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿لَحُسْنَ﴾:

نعيمُ الجَنَّةِ مِمّا يُسْتَحْسَنُ في العقل والحسِّ، وهوَ أدْخَلُ في التَّمَتُّعِ بِلَذائِذِ الجَنَّةِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن استعمالِ لَفْظِ (خير مآبٍ) إلى (حُسْنَ مَآبٍ) وذلكَ لأنَّ الحُسْنَ: عِبارَةٌ عنْ كُلِّ مُبْهِجٍ مَرْغوبٍ فيهِ، وذَلِكَ ثَلاثَةُ أضْرُبٍ: مُسْتَحْسَنٌ منْ جِهَةِ العَقْلِ، ومُسْتَحْسَنٌ منْ جِهَةِ الهَوَى، ومُسْتَحْسَنٌ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(2) السّامرّائيّ، أسرار البيان: 21.
(3) الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة: 6/ 1/ 195.

مِنْ جِهَةِ الحِسِّ، وأمّا الخَيْرُ فَهوَ ما يَرْغَبُ فيهِ الكُلُّ، كالعَقْلِ مَثَلًا، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيْءِ النّافِعِ[1]. فجاءَ البيانُ القُرْآنيُّ بلفظِ (الحُسْنِ) لأنَّ نعيمَ الجَنَّةِ مِمّا يُسْتَحْسَنُ في الأحوالِ الثَّلاثَةِ، وهوَ أدْخَلُ في الحِسِّ والتَّمَتُّعِ بِلَذائِذِ الجنَّةِ، وهوَ أنسبُ لِما ذُكِرَ بَعْدَ ذَلكَ مِن نَيلِ المُتَعِ الطَّيِّبَةِ مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والزَّوجاتِ الحِسانِ في الجنَّةِ.

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿لَحُسْنَ﴾ إلَى ﴿مَـَٔابٍ﴾:

تكثير المعنى، والدّلالة على غزارته

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وصْفَ (الحُسنَ) إلى المآبِ، مِنْ بابِ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ؛ لتكثيرِ المعنى، وللدّلالةِ على غزارتِه، وذلك إمّا بالتَّأْويلِ كقولنا: (مَآبٍ ذي حُسْنٍ)، وإمّا بدونِ هذا التَّأويل، بل قَصْدًا مباشرًا لِلْمُبالَغَةِ[2].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿مَـَٔابٍ﴾:

الاتِّساقُ اللَّفظيُّ والدّلاليُّ أصلٌ في الاجتباءِ والاختيارِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿مَـَٔابٍ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ دونَ غَيْرِها من الألفاظِ الَّتي تصْلُحُ في هذا المقامِ مثلُ (ثَواب) الَّتي ورَدَت في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195]، وذَلِكَ لأنَّ المآبَ هوَ المَرْجِعُ، وإضافةُ (حُسْنُ) إلى ﴿مَـَٔابٍ﴾ هي مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها، أيْ المآبُ الحَسَنُ، وهو الجنّة[3]، فَفيه إشارَةٌ إلى أنَّ عاقِبَةَ الابتلاءِ الرُّجوعُ إلى اللّهِ، وأنَّ ما عِنْدَ اللّهِ تَعْويضٌ عَمّا لاقاه هؤلاءِ الأنبياءُ الكِرامُ وأتْباعُهم من مصائِبَ في الحَياةِ الدُّنيا. وفيه إشارةٌ كذلكَ إلى أنَّ ما فَعَلَه هؤلاءِ الكِرامُ - مِمّا هوَ خلافُ الأوْلَى - لا يحولُ دونَ حُسنِ الرُّجوعِ وكَرَمِ الاستِقْبالِ في الآخِرَةِ. كَما أنَّ بينَ لفظِ (المآبِ)

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن) و(خير).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.
(3) مَجْمَع البحوث، التّفسير الوسيط، ص: 529.

ولفْظِ (الأوّابِ) رابطًا مَتينًا من حُسنِ الاتِّساقِ والانْسِجامِ، فُكُلُّ عبْدٍ أوّابٌ في الدُّنيا مآبُه إلى جنّاتِ الخلودِ.

بَلاغَةُ البَيانِ بَعْدَ الإجْمالِ:

فـي الإجـمـالِ تَشْويقٌ وإثارةٌ، وفي البيانِ إقْناعٌ وإمْتاعٌ

يَحْتَمِلُ قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أن يكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ، سواءٌ أكانت مَعْرِفَةً أم نكرَةً؛ لأنَّ المَعْرِفَةَ تُبْدَلُ من النَّكِرَةِ، والنَّكِرَةَ تُبدَلُ منَ المعرِفَةِ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ عطْفَ بيانٍ إنْ كانتْ نَكِرَةً فَحَسب، ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ نَصْبًا عَلى المَدْحِ، أو مفعولًا به لفعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه (أعني)[1]، وعلى هذه الاحتمالاتِ في الإعرابِ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ يكونُ بيانًا لقولِه تعالى: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، ذلكَ أنَّه سُبْحانَهُ لَمّا شَوَّقَ إلى هَذا الجَزاءِ؛ أبْدَلَ مِنهُ؛ أوْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ أيْ: إقامَةٍ في اسْتِمْراءٍ؛ وطيبِ عَيْشٍ؛ ونُموٍّ؛ وامْتِلاءٍ؛ وشَرَفِ أصْلٍ[2]، وما ألطفَ البيانَ بعد الإجمالِ، لا سيّما في أمورِ الغيبِ، والوعدِ بالنَّعيمِ المقيمِ.

غَرَضُ جَمْعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾:

إفـادَةُ التَّكثيرِ والتَّنوُّعِ لِتَعدُّدِ مراتبِ الصّابِرينَ

جاءَتْ كلمةُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ جَمْعًا لإفادَةِ التَّكْثيرِ، وللتَّرْغيبِ في هذا الثَّوابِ العَظيمِ، وللحَثِّ على سلوكِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ. والجَنَّةُ تَأْتي في القُرْآنِ مَجْموعَةً وتَأْتي مُفْرَدَةً، فإذا عبَّر عنها بالجنّةِ مُفرَدةً فالمرادُ بها الجِنسُ، وإذا عبّر عنها بالجمعِ فالمراد بها أنواعُها[3]، فَباعْتِبارِ الجِنْسِ هيَ جَنَّةٌ واحِدَةٌ، وباعْتِبارِ الأنْواعِ هيَ جِنانٌ، وفي جمْعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بيانٌ لِسَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وأنَّ الإنْعامَ والتَّفَضُّلَ إنَّما هوَ الأصْلُ الَّذي يَكونُ فيهِ العبدُ الطّائِعُ الصابِرُ على الابتلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الجَمعُ راجِعًا إلى تَعَدُّدِ الدّاخِلينَ فيها من أهلِ الإيمانِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 166، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203، والخطيب، التّفصيل: 23/ 291.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(3) العثيمين، تفسير العثيمين: 2/ 269.

وتَفاوُتِ مراتِبِهم في مقامِ الصَّبْرِ على الابْتلاءِ، فَلا يكونونَ جَميعًا في جَنَّةٍ واحِدَةٍ على دَرَجَةٍ واحِدَةٍ، بلْ يَكونونَ في مراتبَ مُتَفاوِتَةٍ، ويَكونُ الأُنْسُ بينَهم بالتَّزاوُرِ فيما بيْنَهم.

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلَى لَفْظِ ﴿عَدْنٍ﴾:

جنّاتُ عدنٍ من مبتكراتِ القرآنِ اللفظيّةِ الدّالّةِ على معنًى مخصوصٍ

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ لَفْظَ ﴿عَدْنٍ﴾ إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾، وفي هذه الإضافَةِ قولانِ، الأولُ أن تكونَ ﴿عَدْنٍ﴾ مِنَ الأعْلامِ الغالِبَةِ غَلَبَةً تَقْديريَّةً، ولُزومُ الإضافَةِ فيها أوْ تَعْريفُها باللّامِ أغْلَبِيٌّ، فـ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ كَـ(مَدينَةِ طيبَةَ)، وقيلَ: العَلَمُ مَجْموعُ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وهو أيْضًا مِن غَيْرِ الغالِبِ؛ لِأنَّ المُرادَ مِنَ الإضافَةِ الَّتي تُعَوِّضُها العَلَمُ بالغَلَبَةِ إضافَةٌ تُفيدُهُ تَعْريفًا. والآخَرُ: أنَّ (عَدْنًا) مَصْدَرُ (عَدَنَ) بِمَكانِ كَذا اسْتَقَرَّ، ومِنهُ المَعْدِنُ لِمُسْتَقَرِّ الجَواهِرِ ولا عَلَميَّةَ ولا نَقْلَ هُناكَ، ومَعْنى ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جَنّاتُ اسْتِقْرارٍ وثَباتٍ[1]، وهذه الإضافَةُ أصبحتْ علمًا تركيبيًّا على الجنّاتِ الخالدةِ التي أعدَّها اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين، ولا ينصرف عند الإطلاقِ لغيرِها، وهي من مُبْتَكَراتِ القرآنِ اللّفظيّةِ الدّالّةِ على معنًى مخصوصٍ.

فائدةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿عَدْنٍ﴾ دونَ لَفْظِ (الخُلودِ):

الجَمْعُ بينَ استقرارِ حالِ أهلِ الجنَّةِ ودوامِ محلِّهم

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ إضافَةَ لفظِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لَفْظِ ﴿عَدْنٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالعَدْنِ الثَّباتُ والاسْتِقْرارِ، ولَمّا كانَتِ السورةُ تُشيرُ إلى تَقَلُّبِ أحْوالِ الأنبياءِ الكرامِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليهم بينَ الابتلاءِ بالمَرَضِ وفقدِ الغِنى وتَحَوُّلِ الأمورِ، والتّنَقُّلِ بين البلادِ جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إشارَةً إلى ثباتِ حالِهم واستقرارِ نَعيمِهم دونَ تَحَوُّلٍ أو تَغَيُّرٍ، كما يستقرُّ المَعْدِنُ في باطنِ الأرضِ، أو يستريضُ الماءُ في بطونِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

الأوْديَةِ[1]، فهم لن يتحوّلوا عن الجنّةِ، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]؛ فحالُ أهل الجنّةِ الخلود، والجنَّةُ باقيةٌ دائمةٌ، فجمع هذا اللفظُ بين استقرارِ الحالِ والمحلّ.

فائدةُ صيغةِ المُبالَغَةِ ﴿مُفَتَّحَةً﴾:

الإشارةُ إلى كثرةِ الأبـوابِ ويُسْرِ فتحِها وجميلِ الاستِقْبالِ

في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ استعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ صيغةَ المُبالغةِ ﴿مُفَتَّحَةً﴾، أيْ أنَّها تُفْتَحُ تَفْتيحًا كَثيرًا وبَليغًا؛ مِن غَيْرِ أنْ يُعانوا في فَتْحِها شَيْئًا مِن نَصَبٍ؛ أوْ طَلَبٍ؛ أوْ تَعَبٍ. وأشارَ جَعْلُ هَذا الوَصْفِ مُفْرَدًا إلى أنَّ تَفْتيحَها عَلى كَثْرَتِها كانَ لَهم في آنٍ واحِدٍ؛ حَتّى كَأنَّها بابٌ واحِدٌ[2]، ففي الصّيغةِ إيماءٌ إلى كثرتِها، ويُسرِ فتحِها، كَما أنَّ في اسْتِعْمالِ صيغَةِ المُبالَغَةِ إشارَةً إلى كَمالَ الحَفاوَةِ، وحُسْنِ الإكرامِ، وجميلِ الاستِقْبالِ الَّذي تَتَلَّقى بِه الجَنَّةُ هؤلاءِ المُتَّقينَ الكرامَ بفضلِ اللّهِ ورَحْمَتِه، فَهي على أتَّمِ استِعْدادٍ لاستقبالِ خيرَةِ خلقِ اللّهِ. فالمَلائِكَةُ المَوَكَّلونَ بالجِنانِ إذا رَأوْا صاحِبَ الجَنَّةِ فَتَحوا لَهُ أبْوابَها وحَيَّوْهُ بالسَّلامِ، فَيَدْخُلُ كَذَلِكَ مَحْفوفًا بالمَلائِكَةِ عَلى أعَزِّ حالٍ وأجْمَلِ هَيْئَةٍ، كَما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمَر: 73]. وقدْ يَكونُ المُرادُ مِن هَذا الفَتْحِ، وصْفُ تِلْكَ المَساكِنِ بالسَّعَةِ، ومُسافَرَةِ العُيونِ فيها، ومُشاهِدَةِ الأحْوالِ اللَّذيذَةِ الطَّيِّبَةِ[3].

نَوْعُ اللّامِ ودَلالَتُها:

اختصاصُ المُتَّقينَ بِـكُـلِّ أسْـبـابِ النَّعيمِ والرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ

اللّامُ في قوْلِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ للاختصاصِ، بالمِلْكيَّةِ والاستِحْقاقِ[4]، فالأبوابُ فُتِّحَتْ لهُم قبل

(1) ابن منظور، لسان العرب: 13/ 279.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 402.
(4) الزّجاجيّ، كتاب اللّامات، ص: 62.

مجيئهم على وجْهِ الخُصوصِ، لا أنَّها فُتِّحَتْ ثُمّ دَخلوها، بل كانت قد فُتِّحت لهم؛ فجاؤوا فدخلوها؛ فَهَؤُلاءِ المُتَّقونَ قدَ اخْتَصَّهُم اللّهُ بِكُلِّ أسْبابِ النَّعيمِ والرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ جَزاءً على صَبْرِهم على ما ابْتَلاهُمُ اللّهُ به مِنْ أصْنافِ الابْتِلاءاتِ الشَّديدَةِ، فصارَ هؤلاءِ الأنبياءُ قُدواتٍ تُحْتَذَى على دَربِ الخلودِ في جنّاتِ النَّعيمِ.

فائدةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

مزيدُ العِنايَةِ بالمُتَّقينَ والاحتفاء بِهِم، وتَخْصيصُهُم بِهذِهِ المَكْرُمَةِ

قَدَّمَ البيانُ القُرْآنيُّ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لَّهُمُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وكانَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ أنْ يتأخَّرَ فيقولُ: (جناتِ عَدنٍ مفتَّحَةً الأبوابُ لَهُم)، وقد عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ ذلكَ إلى تقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ لبيانِ مزيدِ العِنايَةِ بهؤلاءِ المُتَّقينَ وللاحتفاءِ بِهِم، وتخصيصِ هذهِ المَكْرُمَةِ بِهِم لا بَغيرِهِم، حَتّى إذا قَرَّ في نفوسِ المؤمنينَ في دارِ الابتلاءِ مِقْدارُ ما أعدَّ اللّهُ لَهم من التَّكْرِمَةِ في الآخِرةِ لمْ يَنْدَموا على ما فاتَهُم من نعيمِ الدُّنيا، لاختصاصِ النَّعيمِ في الآخِرَةِ لهم دونَ سِواهُم. وكذَلِكَ فَمِنْ مَزيدِ الإكرامِ ألّا "يَلْحَقَهُم في دُخولِها ذُلُّ الحُجّابِ؛ ولا كُلْفَةُ الاسْتِئْذانِ؛ بل تَسْتَقْبِلُهُمُ المَلائِكَةُ بالتَّبْجيلِ؛ والإكْرامِ"[1].

غَرَضُ جَمْعِ ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾:

الإيماءُ إلى كثرةِ أبوابِ الجنّةِ وتنوّعِها

جاءَتْ كلمةُ ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ جَمْعًا لإفادَةِ التَّكْثيرِ والتَّنويعِ مَعَ أنَّها مِنْ جُموعِ القِلَّةِ؛ والسَّبَبُ أنَّ جُموعَ القِلَّةِ الَّتي لا يَأْتي مِنْها جَمْعُ تَكْسيرٍ تَبْقَى عَلَى مَعْنَى التَّكْثيرِ[2]، فأبوابُ الجنَّةِ ثمانيةٌ، ولكلِّ بابٍ اسمٌ يخصُّه، وهؤلاءِ المتّقون لمّا فعلوا الخيرات، وعملوا الصّالحات، فُتِّحت لهم جميعُ الأبواب، وفي جمْعِ ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ بيانٌ لِسَعَةِ رَحْمَةِ الله، وأنَّ الإنْعامَ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.

(2) السيوطي، النكت على الألفية: 2/ 276، والكشاف: 2/ 300.

والتَّفَضُّلَ إنَّما هوَ الأصْلُ الَّذي يَكونُ فيهِ العبدُ الطائعُ الصابرُ على الابتلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الجَمعُ راجِعًا إلى تَعَدُّدِ الدّاخِلينَ فيها من أهل الإيمانِ، وتَفاوُتِ مراتِبِهم في مقامِ الصَّبْرِ على الابْتلاءِ، فَلا يَدْخُلونَ جَميعًا في بابٍ واحدٍ على دَرَجَةٍ واحِدَةٍ، بلْ يَكونونَ في مراتبَ مُتَفاوِتَةٍ، لأنَّ لِكُلِّ بابٍ من أبوابِ الجنَّةِ فِئَةً مَخْصوصةً تَدْخُلُ منه، فَأبْوابُ الجَنَّةِ كَثيرَةٌ بِحَسَبِ أُصولِ الطّاعاتِ[1]، فَفي ذلكَ تَرْغيبٌ في هذا الثَّوابِ العَظيمِ، وحَثٌّ على سلوكِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في طَيِّ حَدَثِ دُخولِ الجَنّاتِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ طَوَى النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ كيفيَّةِ دُخولِ الجنَّةِ، حيثُ شرع النَّظمُ بذكرِ الاتِّكاءِ، وما بين تَفَتُّحِ الأبوابِ والاتِّكاءِ مَطْوِيٌّ، وذلك للإشارَةِ إلى سُرْعَةِ تَمَتُّعِ هؤلاءِ المُتَّقينَ بِنَعيمِ الجَنَّةِ مُباشَرَةً، جَزاءَ ما لاقَوْهُ مِنَ الشَّدائِدِ والمَصائبِ في الدُّنيا، فكانَ الإسْراعُ بِذِكْرِ النَّعيمِ تَعْويضًا لَهم عَمّا فاتَهُم في الدُّنيا، وللمُبالَغةِ في سُرعةِ إكرامِهم وحُسنِ استقبالِهم، فتَفْتيحُ الأبْوابِ كِنايَةٌ عَنِ التَّمْكينِ مِنَ الانْتِفاعِ بِنَعيمِها؛ لأنَّ تَفْتيحَ الأبْوابِ يَسْتَلْزِمُ الإذْنَ بالدُّخولِ وهو يَسْتَلْزِمُ التَّخْليَةَ بَيْنَ الدّاخِلِ وبَيْنَ الانْتِفاعِ بِما وراءَ الأبْوابِ[2]، ولما في طيِّ بعضِ الأحداثِ ما يُثيرُ في النّفسِ إلى الرّغبةِ في معرفتِها، مع التّشويقِ والتّرغيبِ في ذلك.

طَيُّ بعضِ الأحداثِ يفتحُ شَهيَّةَ الفكرِ ويُشوِّقُ رغبةَ النّفسِ

بلاغةُ الكنايةِ في اخْتيارِ لَفْظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلَفْظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾، وذلكَ لأنَّ الاتِّكاءَ إنَّما هوَ جِلْسَةُ الرّاحَةِ والتَّرَفِ، والمُرادُ هَهُنا أنَّهُم لَيْسَ لَهم شُغْلٌ سِوى

الاتِّكاءُ في ظِلالِ الجِنانِ من أتَمِّ مظاهِرِ الرّاحَةِ والدَّعَةِ

(1) الزَّبيديّ، إتحاف السّادة المتّقين: 10/ 525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.

النَّعيم؛ ولا عَلَيْهِمْ كُلْفَةٌ أصْلًا[1]؛ فالمتَّكَأُ من مَظاهِرِ النِّعْمَةِ والتَّرَفِ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، فهي كنايةٌ عن صفةِ الرّاحةِ والاستقرارِ النّفسيِّ الذي يتمتّع به أهلُ الجنَّةِ، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: 20]، فالاتِّكاءُ من أتَمِّ مظاهرِ الدَّعَةِ والتَّرَفِ، لا تقومُ مقامَه صِفَةٌ أُخْرى كالاضطِجاعِ؛ لأنَّ الاضْطِجاعَ يَدُلُّ عَلَى لُصوقٍ بِالأرْضِ عَلَى جَنْبٍ، في دلالَةٍ على الضَّعْفِ والوهَنِ، وليس كذلك الاتِّكاء.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الفاعِلِ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ للدلالَةِ على ثباتِ حالِهم واستمرارِ نَعيمِهم في الجنَّةِ، فَلا تَعبَ ولا نَصبَ، بلْ هُم في راحَةٍ تامَّةٍ، فلا يُضَّطَرونَ للقيامِ لكسبٍ أو اجْتِلابٍ، فجمعَ اسمُ الفاعلِ بين التَّجدُّد والاستمرارِ والثَّباتِ والمُكْنَةِ[2]، فاتِّكاؤهم اتّكاءُ استقرارٍ وراحةٍ، لا اتِّكاءُ مرحلةٍ زمنيةٍ مؤقَّتَةٍ يَتْبَعُها عَملٌ وجُهدٌ.

اتِّكاءُ أهلِ الجنّةِ ثابتٌ دائمٌ لا مؤقّتٌ مُتبَدِّل

دلالَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ:

جاءَ استعمالُ حرفِ الظَّرْفيَّةِ لإفادَةِ مَعْنى التَّضَمُّنِ والاحْتِواءِ[3]، فكأنَّ الجَنَّةَ قدْ احْتَوتْ هؤلاءِ المُتَّقينَ وشَمَلَتْهُم فيها، فَهُم مَغْموسونَ في النَّعيمِ ظاهِرًا وباطِنًا، لا يَنْفَكّونَ عنِ التَّلَذُّذِ بِهذا النَّعيمِ المُقيمِ والرّاحَةِ التامَّة، كما أنَّ حرفَ الظّرفيَّةِ يُرشِّحُ دلالةَ الاستقرارِ والثّبات، فهم متّكئون في الجنَّةِ، راسخون فيها، غيرُ متحوّلين عنها.

أهلُ الجنَّةِ مستقرّون في نعيمِها راسخون في خيراتِها

بَلاغَةُ جُمْلَةِ ﴿يَدْعُونَ﴾ بينَ الحاليَّةِ والاسْتِئْنافِ:

دلالةُ الفعل ﴿يَدْعُونَ﴾ في قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ قيلَ: حال مِن ضَميرِ ﴿لَّهُمْ﴾، وهي حالٌ مُقَدَّرة؛

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(2) السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربية، ص: 41، والزعبلاوي، دراساتٌ في النّحو، ص: 482.
(3) السّامرّائي، معاني النّحو: 3/ 58.

بيانُ حالِ المُتَّقينَ بَعْدَ دُخولِهم الجنَّةَ وتَنَعُّمِهم فيها

لِأنَّ الاتِّكاءَ وما بَعْدَهُ لَيْسَ في حالِ تَفْتيحِ الأبْوابِ، بَلْ بَعْدَهُ، وقيلَ: حالٌ مِن ضَميرِ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾، وقالَ بَعْضُهُم: الأظْهَرُ أنَّ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَدْعُونَ﴾ قُدِّمَ رِعايَةً لِغَرَضٍ بلاغيٍّ يقتضيه المعنى والسّياق، وهو قوّةٌ في النَّظْم، وروعةٌ في الأسلوب، و﴿يَدْعُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ لِبَيانِ حالِهِم، كَأنَّهُ قيلَ: ما حالُهم بَعْدَ دُخولِها؟ فَقيلَ: يَدْعونَ فيها بِفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ وشَرابٍ مُتَّكِئينَ فيها[1].

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ:

نَعيمُ المُتَّقينَ مُتَجَدِّدٌ لا يَنْقَطِعُ، فَهُم في مُتْعَةٍ تامَّةٍ لا يَمَلّونَ مِنها

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ المَضارِعَ ﴿يَدْعُونَ﴾ للدّلالَةِ على أنَّ نَعيمَ المُتَّقينَ مُتَجَدِّدٌ لا يَنْقَطِعُ، وأنَّهُم في مُتْعَةٍ تامَّةٍ لا يَمَلّونَ مِنها، فَهُم على الدَّوامِ يَطْلُبونَ فَيُجابونَ إلى ما طَلَبوا، فلا هُم يَكُفّونَ عنِ الطَّلَبِ، ولا العَطاءُ يَنْقَطِعُ بأيِّ حالٍ، فَهُم كُلَّما أرادوا أُعْطوا؛ مِن غَيْرِ مانِعٍ أصْلًا؛ ولا حاجَةٍ إلى قيامٍ؛ ولا قُعودٍ؛ يُتْرَكُ بِهِ الاتِّكاءُ[2]، فَضْلًا من ربِّهِم، وجزاءً على صَبْرِهم على أعباءِ الدَّعوةِ ومَشاقِّ التَّكاليفِ.

بَلاغَةُ تَكْرارِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ:

إقامةُ الاتِّكاءِ والدُّعاءِ كلٌّ منهما إقامةً مستقلَّةً في معناها ودلالتِها

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرفَ الظَّرْفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ فلم يقُل: (مُتَّكِئينَ فيها يَدْعونَ بِفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ وشَرابٍ)، لِأنّ تَكْرارَ الكَلِمَةِ أحْيانًا لَهُو أبْلَغُ في التَّأْكيدِ مِنَ التَّأْكيدِ بأدَواتِ التَّأكيدِ اللَّفْظيَّةِ، وهوَ مِنْ مَحاسِنِ الفَصاحَةِ[3]، وها هُنا جاءَ لِبيانِ أنَّ اتِّكاءَهم في الجنَّةِ له حالٌ لاحقٌ له وهو أنَّهم يدعونَ فيها كذلك، فاتِّكاؤُهم ودعاؤُهم في الجنَّة كائنٌ مستقرٌّ راسخٌ، لا يَنفكُّ أحدُ النَّعيمينِ عن الآخرِ، فجاءَ التَّكْرارُ لإفادَةِ مَعْنَى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 204.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.
(3) السُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 280.

التَّوكيدِ والمُبالَغَةِ، بالإضافَةِ إلى إثباتِ مَعنًى آخرَ غيرِ المَعنى الَّذي جاءَ أوَّلًا، فالظَّرْفيَّةُ هَنا مُختَصَّةٌ بالدُّعاءِ والطَّلَبِ، في حينِ أنَّها في المَرَّةِ الأولَى واقِعَةٌ على حالِ الاتِّكاءِ، فدلَّ التّكرارُ على توكيدِ الرُّسوخِ والانغماسِ في النَّعيم.

نَوْعُ الباءِ ودلالَتُها:

جاءَتِ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ للمُصاحَبَةِ والإلْصاقِ، من قَوْلِهِمْ: دَعا بِكَذا، والتَّقديرُ: دَعا مَدْعوًّا يُصاحِبُهُ كَذا[1]، فالنَّعيمُ لا يُفارِقُهم أصلًا، بلْ هُم في رزقٍ كريمٍ لا انتهاءَ لهُ.

مصاحَبةُ النَّعيمِ للمُتَّقينَ فَهو لا يُفارِقُهم

تَوْجيهُ تَخْصيصِ الفاكِهَةِ والشَّرابِ بِالذِّكْرِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ خَصَّصَ النَّظْمُ الحكيمُ الفاكِهَةَ والشَّرابَ بالذِّكْرِ لِلإيذانِ بِأنَّ مَطاعِمَهم لَمَحْضِ التَّفَكُّهِ والتَّلَذُّذِ[2]. وهذا منْ كَمالِ التَّنَعُّمِ، فإنَّهُم لا يَطْعَمونَ عنْ جوعٍ أو عَطَشٍ، بل للتَّمَتُّعِ والتَّلَذُذِ بنِعَمِ اللّهِ عَلَيْهِم، ومن دلائلِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ الَّتي يعرفها أهلُ الدُّنيا الفاكهةُ والشَّرابُ، فَذِكْرُ هذينِ الصِّنفينِ لبيانِ أنَّ أهلَ الجنَّةِ في غايةِ النِّعمِ التي تُنعِشُ الأبدانَ ممّا يعرفُه أهلُ الدنيا، وعليه فيكون ذلك كنايةً عن صفةِ التّنعُّمِ البالغِ ممّا يُدركُه المخاطَبون.

الكنايةُ عن التّنعُّمِ الكاملِ ممّا يُدركُه المخاطَبون

غَرَضُ تَنْكيرِ (فاكِهَةٍ):

نُكِّر لفظُ (فاكِهَةٍ) في قولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ للتَّعْظيمِ، إذْ قَدْ تَأْتي النَّكِرَةُ لِهَذا المَعْنَى البَلاغيِّ كَما قَرَّرَ عُلماءُ البَلاغَةِ[3]، فَهي هنا فاكِهَةٌ عَظيمةُ المُتْعَةِ، وقدْ أفادَ التَّنْكيرُ هَهُنا التَّعْظيمَ والتَّعْميمَ؛ لِتَشْمَلَ كُلَّ أنْواعِ الفاكِهَةِ، ما عَرَفْنا مِنْها

فاكِهَةُ الجنَّةِ أعظمُ وأكثرُ ممّا يخطُرُ على قلبِ متفكِّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 204.
(3) السبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 205.

وما لَمْ نعْرِف، كَما جاءَ في الحديثِ القُدْسيِّ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «قالَ اللَّهُ: أعْدَدْتُ لِعبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، كَما أنَّ مُفْرَدَةَ الفاكِهَةِ تَدُلُّ عَلَى طيبٍ واسْتِطابَةٍ واسْتِطْرافٍ، فَهي نِعْمَةٌ من اللهِ تعالى زيادَةً في تَمَتُّعِ أهلِ الجَنَّةِ ومُبالَغةً في حُسْنِ استِقْبالِهم.

فائدةُ وصْفِ الفاكِهَةِ بِالكَثيرَةِ:

توكيدُ تَنَوُّعِ الفاكِهَةِ وتَعَدُّدِ أصْنافِها

في قولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ وصَفَ البيانُ القُرْآنيُّ الفاكِهَةَ بأنَّها ﴿كَثِيرَةٍ﴾ لأنَّها تَتَنَوَّعُ، وحَيْثُما ذَكَرَ اللّهُ تعالى الفاكِهَةَ فَإنَّهُ يَذْكُرُ ما يَدُلُّ عَلَى كَثْرَتِها؛ لأنَّها لَيْسَتْ لِدَفْعِ الحاجَةِ حَتَّى تَكونَ بِقَدْرِ الحاجَةِ، بَلْ هيَ لِلتَّنَعُّمِ، فَلِهَذا وصَفَها بِالكَثْرَةِ والتَّنَوُّعِ[2]، وكَثْرَتُها لاخْتِلافِ أنْواعِها وكَثْرَةِ كُلِّ نَوْعٍ مِنها. ورَغْمَ أنَّ لَفْظَ (فاكِهَة) اسْمُ جِنْسٍ، يَشْمَلُ المُفْرَدَ والمُثَنَّى والجَمْعَ، فقدْ جاءَ الوَصْفُ بالكَثْرَةِ للتَّشْويقِ والتَّرْغيبِ فيما يَنْتَظِرُ المُتَّقينَ مِنْ لَذائِذِ الجنَّةِ ونَعيمِها؛ ففيه توكيدُ الكثرةِ.

غَرَضُ تَنْكيرِ (شَرابٍ):

جاءَ النَّظْمُ الحكيمُ بتَنْكيرِ مُفْرَدَةِ (شَّرابٍ) لِلتَّعْظيمِ، أيْ: شَرابٌ نَفيسٌ في جِنْسِه[3]، والتَّنْكيرُ كذلكَ يُفيدُ العُمومَ، فَهو شَرابٌ كثيرٌ يَشْمَلُ كُلَّ أنواعِ الشَّراب.

فنُّ الاكتفاءِ بحذفِ صفة (شراب) وإفرادِه:

إذا تكاثرتِ الفاكهةُ فمثلُها الشَّرابُ متكاثرٌ

جاءَ الشَّرابُ بالإفْرادِ، دونَ الفاكِهَةِ الَّتي جاءتْ بِصيغَةِ الجَمْعِ، وذلك لأنَّ العربَ تُطلقُ الشَّرابَ على الخمرِ، وقد عقد البِقاعيُّ مقارنةً بينَ إفرادِ الشَّرابِ وجمعِ الفاكِهَةِ، وذلك أنَّ الفاكهةَ جاءَتْ جَمْعًا لأنَّها لا يُمَلُّ مِنها؛ وأنَّ الشَّراب إنَّما أُفْرِدَ

(1) الحديث رواه البخاريّ، كتاب بَدْءِ الخَلْقِ، باب ما جاء في صِفَةِ الجنّة، حديث رقم: (3280).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.

لأنَّه لا يُؤْخَذُ إلّا بِقَدْرِ الكِفايَةِ؛ فَجاء دونَ الفاكِهَةِ[1]، وقد يُحمَلُ الكلامُ على الاكتفاءِ، والتَّقْديرُ: وشَرابٌ كَثيرٌ، ونكتةُ الكفايةِ في كون كثرةِ الشَّرابِ قد عُلِمَتْ من كثرةِ الفاكهةِ، فلا تتكاثرُ الفاكهةُ إلّا والشَّرابُ مثلُها متكاثرٌ.

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

في عطفِ ذِكْرِ الحورِ العينِ على الطَّعامِ والشَّرابِ تَنْويعٌ لِمُتَعِ الجنَّةِ ولَذائِذِها

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ عاطِفَةً أو حاليَّةً، إذْ لَمّا كانَ الأَكْلُ والشُّرْبُ داعيَيْنِ إلى النِّساءِ؛ لا سيَّما مَعَ الرّاحَةِ[2]؛ عَطَفَ عَليْهِما بالامْتِنانِ بذِكرِ الزَّوجاتِ. وكذَلِكَ فإنَّ في عطفِ ذِكْرِ الحورِ العينِ على الطَّعامِ والشَّرابِ تَنْويعًا لِمُتَعِ الجنَّةِ ولَذائِذِها.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في اسْتِعْمالِ الظَّرْفِ المضافِ للضَّميرِ:

قاصِراتُ الطَّرْفِ مُلازِماتٌ لِمَجالِسِ أهلِ الجنَّةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ ظَرْفَ المكانِ (عِنْدَ) المُفيدَ للقُرْبِ المضافَ إلى ضميرِ المتّقين، فأفادَ بأنَّ هؤلاءِ الزّوجاتِ مُلازِماتٌ لَهم في مَجالِسِهمُ الَّتي تُدارُ عَلَيْهِمْ فيها كَأْسُ الجَنَّةِ، وكانَ حُضورُ الجَواري مَجالِسَ الشَّرابِ مِن مُكَمِّلاتِ الأُنْسِ والطَّرَبِ عِنْدَ سادَةِ العَرَبِ[3]. وفي إضافَةِ الضَّميرِ (هُم) للظَّرفِ (عِنْدَ) إشارَةٌ إلى اختصاصِ هَؤُلاءِ المُتَّقينَ بهؤلاءِ الزَّوجاتِ، وكِنايَةٌ عَنْ تَمَكُّنِهِم مِنْهُنَّ، فَهُم في سعادَةٍ تامَّةٍ وحبورٍ مُقيمٍ.

بَلاغَةُ حَذْفِ مَوْصوفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾:

إقامةُ الصِّفةِ مقامَ الموصوفِ لبيانِ عزيزِ شأنِ هذه الصِّفةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ موصوفَ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، إذ إنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ، أيْ: نِساءٌ قاصِراتُ النَّظَرِ.

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 114.

فَفي حذْفِ المَوصوفُ إشارَةٌ إلى تَمَكُّنِ الصِّفَةِ في المَوْصوفِ، فلا تكادُ صِفَةُ (قَصْرِ الطَّرْفِ) تُعْرَفُ سوى في كاملاتِ الأُنوثَةِ من النِّساءِ، وفي ذلكَ مُبالَغَةٌ في وصْفِ أُنوثَتِهِنَّ وحُسْنِ تَبَعُّلِهِنَّ لأزْواجِهِنَّ، فكأنَّ هذه الصِّفةَ هي صِفتُهُنَّ الوحيدةُ، فأُقيمَتْ مقامَ الموصوفِ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الفاعِلِ المَجموعِ جَمْعَ قِلَّةٍ:

جَمْعُ القِلَّةِ أُريدَ بِهِ الكَثْرَةَ لِأَنَّهُ أَشْهَرُ وأَوْضَحُ وأَرْشَقُ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ باسْتِعْمالِ اسمِ الفاعِلِ المَجْموعِ جَمْعَ قِلَّةٍ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، رَغْمَ كَثْرَةِ عَدَدِ أهلِ الجنَّةِ، وذلكَ أنَّه لَمّا كانَ سياقُ الامْتِنانِ مُفْهِمًا كَثْرَةَ المُمْتَنِّ بِهِ؛ لا سيَّما إذا كانَ مِنَ العَظيمِ تعالى؛ أتى بِجَمْعِ القِلَّةِ؛ مُريدًا بِهِ الكَثْرَةَ؛ لِأَنَّهُ أَشْهَرُ وأَوْضَحُ وأَرْشَقُ مِن (قَواصِرُ)؛ المُشْتَرِكُ بَيْنَ جَمْعِ (قاصِرٌ)؛ و(قَوْصَرَةٌ)؛ بِالتَّشْديدِ؛ والتَّخْفيفِ؛ لِوِعاءِ التَّمْرِ؛ فَقالَ: ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾[1]، وجمعُ القلَّة فيه من الفخامةِ ما لا يوجد في جمعِ الكثرةِ، فلا يُرادُ بجمعِ القلّة قلّة العددِ، وإنَّما فخامة الحالِ، واسْتَعْمَلَ اسمَ الفاعِلِ للدّلالَةِ على أنَّ هذا الوصْفَ ثابتٌ فيهِنَّ لا يتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ.

بلاغةُ إضافَةِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ لِلَفْظِ ﴿ٱلطَّرْفِ﴾:

كنايةٌ عن المَحبَّةِ وكمالِ الحُسْنِ والجَمالِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ جاءتْ كَلِمَةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ مُضافَةً إلى ﴿ٱلطَّرْفِ﴾، بمعنى: قاصراتٌ للطّرفِ، وذلكَ كِنايَةٌ عَنْ مَحَبَّتِهِنَّ لأزْواجِهِنَّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى: أنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ أطْرافَ أزْواجِهِنَّ عَلَيْهِنَّ فَلا تَتَوَجَّهُ أنْظارُ أزْواجِهِنَّ إلى غَيْرِهِنَّ اكْتِفاءً مِنهم بِحُسْنِهِنَّ، وذلكَ كِنايَةٌ عَنْ تَمامِ حُسْنِهِنَّ في أنْظارِ أزْواجِهِنَّ بِحَيْثُ لا يَتَعَلَّقُ اسْتِحْسانُهم بِغَيْرِهِنَّ، وعليه فالأطْرافُ المَقْصورَةُ أطْرافُ أزْواجِهِنَّ، وإضافةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلَى

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.

﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ مَجازٌ عَقْليٌّ إذْ كانَ حُسْنُهُنَّ سَبَبَ قَصْرِ أطْرافِ الأزْواجِ فَإنَّهُنَّ مُلابِساتٌ سَبَبَ القَصْرِ[1].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾:

المَجازُ المُرْسَلُ لِعلاقَةِ المُلابَسَةِ بين تَحْريكِ الجَفْنِ ولازِمِه وهوَ النَّظَرُ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بِمُفْرَدَةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾، والطَّرْفُ هوَ تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ، هَذا هوَ الأصْلُ ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ بالطَّرْفِ مَجازًا[2]، إذْ كانَ النَّظَرُ من لوازِمِ تَحْريكِ الجَفْنِ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، عِبارَةٌ عنْ إغْضائِهِنَّ لِعِفَّتِهِنَّ[3]، وعدمِ تحريكِهِنَّ أطرافَهُنَّ إلّا لأزواجِهِنَّ، وفيه إيماءٌ إلى كمالِهِنَّ في نقائِهِنَّ من خائِنَةِ الأعينِ، وفي ذلكَ إثارَةٌ لَعَقْلِ المُتَلَقّي وإعْمالٌ لخيالِه في فَهْمِ المَعْنى المُرادِ.

بلاغةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿أَتۡرَابٌ﴾:

خُلوصِ وجْهِ النَّعيمِ وصفاؤُه لأهلِ الجنَّةِ فلا تَعَبَ فيها ولا كدَرَ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ باسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿أَتۡرَابٌ﴾، والتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْعُ أتْرابٌ[4]، أي: لِداتٌ، تَنْشَأنَ مَعًا، تَشْبيهًا في التَّساوي والتَّماثُلِ بالتَّرائِبِ الَّتي هيَ ضُلوعُ الصَّدْرِ، أوْ لِوُقوعِهِنَّ مَعًا على الأرْضِ، وقيلَ: لأنَّهُنَّ في حالِ الصِّبا يَلْعَبْنَ بالتُّرابِ مَعًا[5]، والظّاهِرُ أنَّ هَذا الوَصْفَ بَيَّنَهُنَّ، فَيَكونُ في ذَلِكَ إشارَةٌ إلى مَحَبَّةِ بَعْضِهِنَّ لِبَعْضٍ وتَصادُقِهِنَّ فيما بَيْنَهُنَّ، فَإنَّ النِّساءَ الأتْرابَ يَتَحابَبْنَ، ويَتَصادَقْنَ، وفي ذَلِكَ راحَةٌ عَظيمَةٌ لأزْواجِهِنَّ كَما أنَّ في تَباغُضِ الضَّرائِرِ نَصَبًا عَظيمًا، وخَطْبًا جَسيمًا لَهُمْ. وقيلَ: إنَّ ذَلِكَ بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ أزْواجِهِنَّ، أيْ إنَّ أسْنانَهُنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(5) الرّاغب، المفردات: (ترب).

كَأَسْنانِهِمْ ليَحْصُلَ كَمالُ التَّحابِّ[1]. وفي ذَلِكَ دَليلٌ على خلوصِ وجْهِ النَّعيمِ وصَفائِه لأهلِ الجنَّةِ فلا تعَبَ فيها ولاكدَرَ.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿أَتْرَابٌ﴾:

جاءتْ كلِمَةُ ﴿أَتْرَابٌ﴾ نكرةً لأنَّها صفةٌ لقاصرات، فأفادَتْ ما أفادَتْه ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ من التّفخيم والتّعظيم لشأنِهنَّ، وعظيم حالهنَّ. إذْ كثيرًا ما تَأْتي النَّكِرَةُ لِهَذا المَعْنَى البَلاغيِّ كَما قَرَّرَ عُلماءُ البَلاغَة[2].

بَراعَةُ التَّرْتيبِ في التَّرْغيبِ بِالصِّفاتِ:

تَـدَرُّجُ التَّنَعُّمِ بَـدْءًا بـراحَـةِ الـجَـسَـدِ، ثم لَـذَّةِ الـطَّـعـامِ والـشَّـرابِ، وانتهاءً بُمتْعَةِ الجِماعِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ ۞وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ رَتَّبَ البيانُ القُرْآنيُّ ما أعدَّه اللّهُ للمُتَّقينَ منْ أفانينِ النَّعيم، فَبَدَأ ببيانِ راحَةِ الجَسَدِ بِنِعْمَةِ الاتِّكاءِ في ظِلالِ الجنانِ، ثُمَّ الدَّعْوَةِ بِالفاكِهَةِ والشَّرابِ، فالتَّلَذُّذ بِقاصِراتِ الطَّرْفِ، وهذا التَّرْتيبُ دالٌّ أشدَّ الدّلالَةِ على دِقَّةِ مُراعاةِ الاحتياجاتِ الإنسانيَّةِ، فَطلبُ الرّاحَةِ بَعْدَ التَّعَبِ والنَّصَبِ مُقَدَّمٌ على الرَّغْبَةِ في الطَّعامِ والشَّرابِ مَهْما بَلَغَ الجَوعُ والعطشُ بالإنسانِ، وهذا مَعْلومٌ مُشاهَدٌ، فإذا استَوْفَى قِسْطًا منَ الرّاحَةِ نالَ ما تَيَسَّرَ منِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وتَحَرَّكتْ نَفْسُه لدواعي الجِماعِ والتَّلَذُّذِ بالنِّساءِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(2) السبكيّ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/ 205.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»